# الحج الابراهيمي ـ رؤية إحيائية جديدة في منظور الامام الخميني

مختار الأسدي

**مقدمة**

عاش الامام الخميني أمة في رجل، ورحل عظيماً عن أمة، كان تجسيداً كاملاً للمبادئ التي عاش لها ودعا إليها. لم تنفصل أقواله عن أفعاله، ولم تنسلخ كينونته عن كلماته، فكان النظرية والتطبيق، والقول والفعل، والمصداق والمفهوم، كان صدىٰ أهل السماء لأهل الأرض، وهبة الله تعالى للمؤمنين والمسلمين والمستضعفين في نهاية القرن العشرين...

حرّك الشارع الاسلامي عقداً كاملاً من السنين، ومن أقصى الأرض الى أقصاها، وحكم وما زال يحكم وسيظل هكذا عقوداً أخرى ومن قبره الشريف، ما دام على وجه الأرض غيارىٰ يرفضون الظلم، أو أحرار يتمردون على البغي، أو ثوار يتحدّون الطغاة.

لقد أصبحت كلماته، مثل مرقده الشريف، مزاراً للعشاق ومنهلاً للثوار ومثابة لطلاب الكرامة والمحرومين، ونشيداً للمستضعفين والشرفاء ودعاة التغيير

والاصلاح.

لم تكن كلماته التي تركها في أعناق الرجال إلّا مشعلاً آخر من مشاعل النور يضيء الدرب للأحرار والثوار، ليشقوا طريقهم في الدهاليز المظلمة التي صنعها طواغيت الأرض، ونبراساً يواصل به رجال خطه الأصيل إضاءة هذه الدهاليز...

نعم، ستظل كلمات الامام الخميني ومواقفه ووصاياه مصاديق صارخة لكشف زيف الأدعياء والمقاولين ووعاظ السلاطين وتجار الدين. كما ستظل صيحاته ورؤاه صرخات غضب مقدس لاستنهاض الأحرار والشرفاء واستصراخهم ومناشدتهم لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، سعياً حثيثاً لاستكمال المشروع التغييري الذي بدأه وصولاً لإنجاز مشروع النهضة الاسلامية المعاصرة...

من هنا صار الوفاء واجباً لهذا الرجل، وصار لزاماً أن تبقى كلماته خالدة في ضمائر الأحرار والنجباء، وأن تبقىٰ بياناته وأفكاره شاخص هداية ونبرات نور للسالكين والمناضلين والمؤمنين...

**العبادات وفلسفة التغيير عند الامام**

في فلسفة التغيير الاجتماعي والعبادات، كان للإمام الخميني ﷺ رؤية خاصة وأطروحة متكاملة ميّزته عن الكثيرين من العلماء ومراجع الدين العظام، وجعلت منه رائداً ومجدّداً استطاع أن يؤكد قدرته التغييرية ومنهجه التجديدي بموفقية ونجاح باهرين. ولا نجانب الحق إذا قلنا: إنّ منهجه الإحيائي نال إعجاب العدو والصديق والقريب والبعيد حيث أعاد للدين الاسلامي العظيم قدرته الكامنة على تغيير النفوس، وفعله المؤثر على النفس البشرية في انطلاقتها نحو التكامل والرقي...

وقد لُخصت رؤيته الإحيائية هذه في إيمانه العميق بقدرة الاسلام العزيز على

إحداث نقلة نوعية في المحتوى الداخلي للانسان وصـولاً الى التغيير الاجـتماعي الشامل... ومن هنا نالت أفكاره قدرة إشعاعية فائقة، وصارت ثقافة جماهيرية يتحدث بها المثقفون والمفكرون وعوام الناس، فضلاً عن الفلاسفة والمتخصصين والعلماء.

هذه الرؤية هي التي مكّنته من تفجير ثـورته [illegible] طاغوت متحكم، انطلق بعدها لتحكيم دين الله [illegible] الاسلام بعد غياب أو تغييب دام مئات السنين.

هذا الايمان وهذه الرؤية وهذا التصدي [illegible] الامام ضريبة باهضة جعلته يتقاطع مع رؤى الكثير [illegible] ووضعته أمام مرافعات تاريخية حساسة خرج منها [illegible] أن [illegible] المرتكزات الفقهية لهذا التوجّه، وبعد أن تجلّت قدرة الامام، بـ[illegible] تعالى، على صياغة نظرية متكاملة في حركة التغيير وإعادة الروح الى عبادات وطـقوس مـا جاءت إلّا لصالح الانسان، أو ما جيء بها إلا لمصلحة البشرية وإرساء دعائم الحب والمودّة بين بني البشر، وصولاً لتحكيم حدود الله وشريعته وقرآنه...

لقد كان واضحاً تمام الوضوح لدى الامام ﷺ أنّ الجماهير إذا عُـبئت تـعبئة رسالية واعية، ستكون أقوىٰ من كلّ الأسلحة المادية والقوى السلطوية المعروفة في دنيا الناس... وقد أثبت فعلاً أنّ (القبضات الخالية) إلّا من الايمان كانت أقوىٰ من كلّ (سافاك) الشاه وجيشه ودرعه وأسلحته...

ففيما يرىٰ بعض العلماء ـ وفق رؤيتهم الحركية ومنهجهم التغييري ـ مثلاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجبان إلّا بعد (ضمان الأثر وحرز الأمن مـن الضرر) وأن التغيير يمكن أن يأتي بسياسة اللين ومداراة الحاكم، والتسلل تدريجياً الى أجهزة السلطة، يرى الامام الخميني ـ وفق مبناه الفقهي طبعاً ـ أنّ التـضحية والمواجهة وثقافة الاستشهاد وتحدّي السلطة الظالمة كلّها كـفيلة بـإحقاق الحـق

وإزهاق الباطل.

وهذا يعني أنّ الامام أدرك بثاقب بصيرة وعمق رؤية أنّ الطواغيت لا يتنازلون عن السلطة ولا يذعنون للحق إلّا تحت التهديد والذعر، وهو عين ما فعله النبي صلى الله عليه وآله حيث بدأ دعوته المباركة سلمية وعظية حكيمة في البداية، ولكن، وحين لم ترق لقريش وجبروتها وخيلائها، وحين قررت مواجهتها وملاحقة دعاتها، شهر السلاح وحكّم السيف في رقاب المتجبّرين وأعداء (الحكمة والموعظة الحسنة).

صحيح أنه صلى الله عليه وآله وعلى امتداد رسالته الحركية دعوة وثورة ودولة لم يرق من الدماء إلّا القليل القليل جدّاً، وأنه تحمّل من الأذىٰ ما لم يتحمّله نبيّ قبله من أجل حقن الدماء واستفراغ الحجة، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه وآله، لم يجد بدّاً من تحكيم القوة في مرحلة من مراحل الصراع...

من هذا المنطلق يمكن القول: إنّ للامام منهجاً خاصاً يتميز به عن الكثير من العلماء سمي فيما بعد بـ(خط الامام) أو (نهج الامام) أو (ما أطلق اصطلاحاً (خط الاسلام المحمدي الأصيل)) وكلّها مصطلحات حديثة شاع استخدامها بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران، وتمّ ترويجها مقابل (الاسلام الامريكي) و(الخط الأموي) و(الحكم السلطاني) الذي كان يطلق على إسلام الملوك والسلاطين، الذين كانوا يوظفون الدين ونصوص الدين لتمرير مخططاتهم وتبرير شرعيتهم أو مشروعية حكمهم، وبتبريك من وعاظهم طبعاً (وعاظ السلاطين) وإطلاق بخور فقههم السلطاني (معمّداً) بمسوح دينية مزيفة.

ولا يعني هذا، على الإطلاق، أنّ نهج الامام جاء شرعاً جديداً أو خطاً مذهبياً أو عقيدياً جديداً في الاسلام مقطوعاً أو مبتوراً عن مبادئ الاسلام وقيم الدين العظيم، وإنما جاء سلوكاً وتجربة وممارسة، وجاء دعوة صادقة لإحياء المغيّب من تعاليم الاسلام، والدعوة الى إعادة حكومة الشريعة التي غابت أو

غيبت لقرون مديدة، تارةً تحت شعار طاعة الحاكم الظالم براً كان أو فاجراً[١]، وتارة تحت تمييع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخرىٰ تحت شعار التقية وعدم الاصطدام بالسلاطين، وهكذا...

**منهج الامام يهزّ الضمير المسلم بعنف**

هذا من جانب، ومن جانب آخر، جاء خط الامام منددا بدعاة انتظار الفرج بمعنى القعود والانتظار السلبي وليس الايجابي، وجاء مشدّداً النكير على أولئك الذين يريدون تهميش دور العالم الديني وحصره في التكايا وحلقات الذكر وفتاوى الفقه الفردية المحدودة، التي ابتعدت عن الواقع الاجتماعي كثيراً، وانهمكت بالكامل بأحكام الطهارة والنجاسات والقصاص والديات وأحكام الشكوك والمياه، وعموم العقود والايقاعات، والزواج والطلاق، وما الى ذلك، أي استغرقت في العبادات دون المعاملات.

وهذا يعني أنّ الامام الخميني استطاع أن يُحدث هزّة عنيفة في ضمير الانسان المسلم، ويُحدث (زلزالاً) في وجدان الشعوب الاسلامية، بعد أن أحدث يقظةً في نفوس العلماء، وفجر صحوة في الفكر السياسي الاسلامي المعاصر.

هكذا تشكّلت خيوط (خط الامام) وهكذا بدأت حركته التغييرية من الحوزة ضد الطاغوت الحاكم، ومن العلماء ضد الحكم القائم، فتزلزلت (الثوابت) أو الرواسب البالية والموروثة، وتراجع الكثيرون ممن كانوا يعانون الحيرة في شرعية الثورة، وتأمّل آخرون ممن كانوا يعتقدون أنّ السيف أقوى من الدم، وأنّ الدبابة لا تُهزم بالقبضة الخالية، وانبهر صنف ثالث قائلين: إنّ (الفرج) يمكن أن يأتي على يد نائب صاحب الأمر وليس بالضرورة أن تكون كلّ راية ترفع قبل ظهور (الحجة عليه السلام) (راية ضلال) وصاحبها (طاغوت) (تصطلمه البليّة) ـ على حدّ تعبير الروايات التاريخية المتدافعة ـ... نعم، اهتزت ثوابت ما كان يُظن أنها ستهتز أو تهزّ، وارتجت مقاييس ما ظنّ أصحابها أنها سترجّ يوماً أو تُرجّ.

جاء خط الامام ليؤكد احتواء العصر، ويوجّه محددات الزمان والمكان وتحولاتها ومتغيراتها وحقائقها، ويترك للفقيه الكفوء العادل تقدير مصالح المجتمع الاسلامي الجديد، وفق هذه المتغيرات والتحولات. فقال:

**«لو كان هناك شخص أعلم من ناحية العلوم المعهودة في الحوزات، ولكنه لا يستطيع تحديد مصلحة المجتمع، فهذا الشخص ليس مجتهداً في المسائل الاجتماعية والحكومية»** أي أنه ﷺ اعتبر القدرة على تحديد مصالح المجتمع شرطاً من شروط الاجتهاد الجديدة، وأضاف عمقاً آخر لما يسمىٰ بـ(الاحكام الثانوية) التي تأتي مع الظرفين الزماني والمكاني، وبالتالي أسّس رؤيته هذه على حدّ قوله:

**«إنّ القضية التي لها حكم معيّن في السابق، يمكن أن يكون لها في الظاهر حكم جديد، فيما يتعلق بالعلاقات التي تحكم السياسة والاجتماع والاقتصاد في نظام ما، بمعنىٰ أنّ نتيجة المعرفة الدقيقة في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تحوّل الموضوع الأول ـ الذي لم يتغير في الظاهر ـ الى موضوع يستلزم حكماً جديداً بالضرورة...»**[٢] هذا (الاتجاه الاجتهادي) الذي سماه بعض الفقهاء (تحوّل الاجتهاد) والذي يقوم على أساس الزمان والمكان والظروف والأحوال، هو الذي استلّ خيوطه (منهج الامام) هذا، وهذا لا يعني بطبيعة الحال تغييراً في حكم الشرع المقدس، بل المتغيّر هو موضوع الحكم؛ لأنّ (المقيّد عدم عند عدم قيده) كما يقول الذهن الفقهي، ولذلك فإنّ الحكم يمكن أن يتبدّل تبعاً لتبدّل الموضوع.

**دوائر التغيير لدى الامام**

وهنا نأتي الى إحصاء سريع لأهم الدوائر المغلقة التي سعى الامام لفك مغاليقها والانطلاق بها الى دوائر الفعل والتغيير وتجاوز دوائر التنظير والتحذير، لنأتي في خاتمتها على أهم هذه الدوائر في الفعل الحركي الاسلامي وهي دائرة الحج الابراهيمي حسب تعبيره رضوان الله عليه.

ويمكن القول: إن أول هذه الدوائر المغلقة هو الفصل بين الدين والسياسة،

حيث انتقل الامام بعالم الدين من كونه (مفتياً) في دار الافتاء أو موظفاً في وزارة الأوقاف أو (عابداً) في صومعة، الى مرجع للأمة وقائد للجماهير، وحاكم مبسوط اليد لتحكيم دين الله وتفعيل المشروع الاسلامي النهضوي الجديد...

وهذا يعني أنّ الامام ﷺ استطاع أن يتخطى الكثير من الأطر التقليدية، التي انكمشت داخلها الحوزة العلمية، وكادت تخنقها في جو من التشرنق والدوران حول الذات، وينتقل بالفكر الاسلامي من حالة التحجر والجمود والتقوقع الى آفاق واسعة في الانفتاح والواقعية والشمول...

بكلمة أخرىٰ استطاع الامام أن يتجاوز الواقع المتكلّس، ويقفز على المخطط الاستكباري المدروس الذي أراد أو أريد به استغفال الشعوب الاسلامية واستهبالها، فنزل الى ميدان المعركة بوعي شمولي ثاقب وإرادة حديدية لا تخضع للتدجين ولا تنثني أمام الابتزاز والإرهاب، فقال بوضوح كامل:

**«إنّ المؤسسات الاستعمارية كلّها وسوست في صدور الناس أنّ الدين لا يلتقي مع السياسة، والعلماء ليس لهم أن يتدخلوا في الشؤون الاجتماعية، وليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأمة، ومن المؤسف ـ والقول للامام طبعاً ـ أنّ البعض منا صدّق تلك الأباطيل، وقد تحقّق بهذا التصديق أكبر أمل تحلم به نفوس المستعمرين...»**[٣].

وهذا يعني أنّ الامام نسف القاعدة الغربية التي تدعو الى فصل الكنيسة عن السلطة؛ لأنّ الاسلام ليس كالمسيحية وأنّ علماء الاسلام ليسوا كالبابوات، وإذا صاروا مثلهم فسوف يحل بهم ما حلّ بأولئك[٤]... وباختصار شديد أنّ الغرب أراد للبابا أن يكون أباً روحياً لا علاقة له من قريب أو بعيد بشؤون الدولة وأمور الناس إلّا مايخصّ الآثام والذنوب والاستغفار و(صكوك الغفران) السيئة الصيت...

ولكن ومع هذا الشدّ الأصيل لعدم فصل الدين عن السياسة، حذّر أشدّ الحذر من عدم انجرار العالم الديني الى بحر السياسة الآسنة واصطياد أسماكه الميتة؛ لأنّ ذلك كما قال يؤدي الى خراب الدين والدنيا معاً... فقد كان دائم التحذير من

الانجرار الى ألاعيب السياسة والسياسيين، وكثير التأكيد على تهذيب النفس وتزكيتها قبل الدخول في دهاليز العمل السياسي... وكان يذكّر دائماً بأقوال الأئمة سلام الله عليهم في تحذيرهم الناس من حب الرئاسة وكيف أنّ «**حب الرئاسة شاغل عن حب الله**» وأن (السلطة ماء آجن) و«**من طلب الرئاسة هلك**» و«**ملعون من ترأّس**» و«**الرئاسة عطب**» وأمثال ذلك.

أي أنّ الامام حاول التأكيد على الموازنة الدقيقة بين السياسة كهدف دنيوي رخيص، وبين كونها وسيلة ضرورية لإحقاق الحق وتحكيم الدين وإقامة المضيّع من حدوده وتعاليمه وقيمه...

هذا بشأن العلماء والسياسة، أما حول الأمة والسياسة، ودور الجماهير، فقد كان الامام الراحل دائم التأكيد على حضور الأمة في الميدان وتحمّلها للمسؤولية في خضم الصراع... وكان رضوان الله عليه يراهن على المستضعفين؛ لأنهم مادة الثورة ووقودها ومعينها الذي لا ينضب، ويوصي بخدمة هؤلاء ورعايتهم...

ولعله لم يترك مناسبة إلّا وأكّد فيها على ما كان يسميه حضور الجماهير ورقابة الأمة، وكان يقول:

**«ولولا حضوركم في ساحة المواجهة لكانوا يسوّدون وجه ثورتكم في العالم،.. إنكم بحضوركم الدائم أحبطتم مكائد أعدائكم... ليس هناك إثم أكبر من السكوت أمام أعداء الأمة... ولا توجد منحة إلهية أكبر من منحة حضوركم لمقاومة أعداء الثورة...»**[٥].

## إنقذوا القرآن الكريم أولاً

وحين يقترب الامام قدس سره من شؤون العبادة وطقوسها المعروفة، خاصة في كتاب العبادة الأول في الاسلام (القرآن الكريم) نراه يتألم ألماً كبيراً وهو يرىٰ هذا الكتاب العظيم يتحول في دوائر الناس والعلماء والسياسيين الى (رقيّة) يُعلق على صدور الفتيات، أو وسيلة تبرّك يوضع على الرفوف، أو وسيلة اصطياد للبسطاء

عبر توظيف بعض نصوصه وتجاهل النصوص الأخرىٰ، وفي أحسن الأحوال يتحول هذا الكتاب المقدس الى كتاب موتىٰ يُقرأ على القبور وأيام الفواتح... وليس كتاب أحياء.

يقول الامام في هذا السياق:

**«وقد عمدت الحكومات الشيطانية وبواسطة الحكومات المنحرفة التي تتظاهر كذباً بالارتباط بالاسلام، الى طبع القرآن الكريم بخط جميل وإرساله الى البلدان المختلفة، فيتم بذلك استغفال بعض الجهلة ممّن يتصورون أنّ هذا وحده يكفي...».**

الى أن يعلن رأيه الواضح الصريح في دور القرآن الكريم في الحياة، ويدعو الى تحكيم حدوده وتعاليمه دون تعسف أو اجتزاء، ويصرخ بأعلى صوته يوماً قائلاً:

**«إننا نريد إنقاذ القرآن الكريم من المقابر»**[٦].

بهذا الفهم للقرآن الكريم وتكريس دوره في حياة الناس، قيمةً ومنهجاً وثقافة، عقيدة ونظاماً، يأتي منهج الامام الراحل ردّاً واضحاً وصريحاً على أولئك الذين حاولوا إقصاء القرآن وتحنيط تعاليم السماء، ويأتي أيضاً تذكيراً صارخاً لأولئك الذين يريدون محاكمة (النص الديني) ـ كما يقولون ـ حين يتهمون القرآن أنه أصبح شيئاً ثميناً في ذاته، وبالأحرى أريد له أن يكون هكذا فيتألمون أو يتباكون قائلين:

«لقد تحول هذا النص المقدس الى شيء ثمين في ذاته، وتمّ تشييئه في الثقافة، فصار حلية للنساء ورقيّة للأطفال وزينة تعلّق على الحيطان، تُعرض الى جانب الفضيّات والذهبيات...»[٧].

## الإمام الخميني والحج الابراهيمي:

حين يأتي الإمام الخميني الى الشعائر نرىٰ له رؤية خاصة وفهماً خاصاً ميّزاه عن الكثير من العلماء والفقهاء... ويأتي هذا الفهم من إدراك الامام الى الدور

العملي للشعار وليس فقط الى ظاهره وشكله...

ولعلّ الشغل الشاغل الذي استحوذ على فكر الامام وأثقل عليه همومه في ايجاد معنى جديد لهذه الشعائر المقدسة هو رؤيته لمسألة الحج وما شخّص فيها من أبعاد إجتماعية مهمة جدّاً، أبعد بكثير مما كان يتصوّره الآخرون في كونها ممارسة عبادية تنأىٰ بالعبد الصالح بعيداً عن هموم الدنيا ومشاغلها وارتباطاتها...

نعم، كان الامام يقدر ما للحج من آثار معنوية ومعين روحي هائل وتزكية وتهذيب للنفوس لا حدود لها، لما في مشاعرها المقدسة من هيبة وأثر في نفوس المؤمنين... ولكنه حاول أن يضيف الى ذلك المعنى الروحي معنىً اجتماعياً أغفله أو تغافل عنه الكثيرون ممن ينظرون الى الأمور بعين واحدة أو بُعدٍ واحد...

وكان أكثر ما أشار إليه الإمام وأكّده في بياناته المتكررة الى حجاج بيت الله الحرام وتوضيح رؤيته في فلسفة الحج، هو تحويل هذه الشعيرة الاسلامية الكبرىٰ الى فعل عبادي حركي يقضي على ذلك (الفصام النكد) بين الدين والسياسة، من جهة، وبين العبادة في بُعديها الروحي والاجتماعي من جهة أخرىٰ...

هذا الموسم العبادي المقدس ـ في وجهة نظر الإمام ـ الذي يجتمع فيه قرابة المليوني مسلم من مختلف أصقاع العالم الاسلامي، والذي شرعه الباري ـ عزّوجلّ ـ كملتقىٰ عام للمسلمين يجب أن يتحول الى مؤتمر عالمي شعبي جماهيري يتدارس فيه المسلمون همومهم وشجونهم، ويسعون من خلال دراسة أهدافه الى الانعتاق من جور الطواغيت والحكام الظلمة، وأن تتخطّى شعاريته حدود كونه طقساً عبادياً لتزكية النفس وتهذيبها رغم ما في هذه التزكية والتهذيب من معانٍ عظيمة ودور مؤثر في صياغة النفس الانسانية وإشعاعها.

جاء الامام لينسف الفهم التقليدي المتحجّر الذي يريد لهذه الفريضة الالهية أن تبقىٰ طقساً عبادياً مجرّداً، لا يُعمق فيه وعي، ولا تتبلور فيه فكرة، ولا ينضج

فيه رشد، ولا يتصعّد فيه شعار الى شعور... أراد الإمام أن يجعل من هـذا الحـج الابراهيمي ـكما أراده خليل الله ابراهيم عليه السلام ـقياماً للناس ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾.

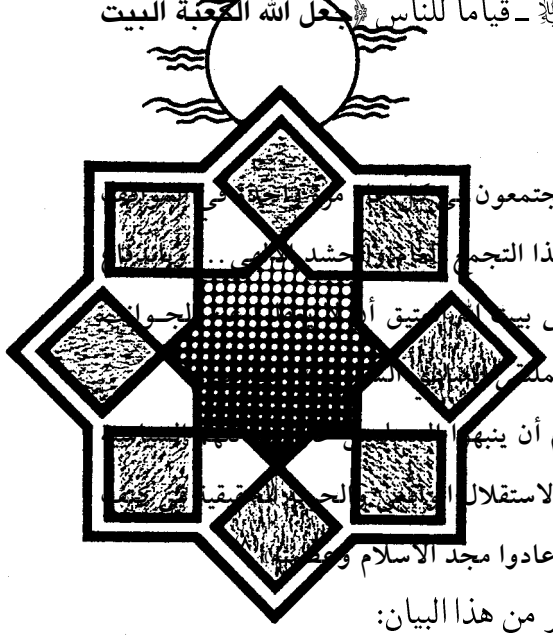

فكان ـرضوان الله عليه ـيقول:

**«إنّ على المسلمين الملتزمين الذين يجتمعون [illegible] مرة واحدة في [illegible] الشريفة، ويؤدون واجباتهم الاسلامية في هذا التجمع [illegible] الحشد الالهي... [illegible] خالص نحو الله والقيم المعنوية والوفود على بيت الله العتيق أن [illegible] الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه العبادة في هذا الملتقى [illegible]**

**«على العلماء الأعلام والخطباء العظام أن ينبهوا [illegible] وواجباتهم الخطيرة التي لو عملوا بها لنالوا الاستقلال [illegible] والحرية الحقيقية [illegible] الاسلام العزيز وقطعوا أيدي المستكبرين وأعادوا مجد الاسلام [illegible]**

ويقول الامام الخميني في مكان آخر من هذا البيان:

**«في هذا التجمع الالهي العظيم، الذي لا تستطيع أية قدرة سوى القدرة الأزلية لله تعالى أن تعقده، يتوجب على المسلمين أن يباشروا في دراسة مشاكل المسلمين العامة ويبذلوا جهودهم بالتشاور لحلّها...»**.

فمن هذا الفهم الواعي لهذا المؤتمر الاسلامي الالهي الكبير، ينطلق الامام من محطة تغييرية كبرىٰ يجدر بالمسلمين استثمارها في تصعيد وعيهم ودراسة مشاكلهم والارتفاع الى مستوىٰ مسؤوليتهم في كونهم مستخلفين من قبل الله تعالى على هذه الأرض في إحقاق الحق وإقامة العدل...

وما دام هذا التجمع الالهي عالمياً ـكما يرى الامام ـوهو كـذلك، فـلماذا لا يجري تدارس الوحدة الاسلامية؟ ولماذا يتواصل الطـرْق عـلى الخـلافات بـين المسلمين في محاولات خبيثة لزرع الفتنة في الصف الاسلامي؟ ولماذا لا يحجّم دور الحكام في إذكاء نار الفتنة هذه؟

## الحج والوحدة بين المسلمين

يقول الامام متحرقاً في هذا السياق:

**«إنّ من أكبر هذه المشاكل وأكثرها أهمية، هي عدم الوحدة بين المسلمين، وإنّ بعض من يُسمّون بزعماء الدول الاسلامية هم أساس هذه المشكلة، إذ إنهم يقومون تماماً كما يقوم الجناة الطامعون باستغلال هذه الخلافات بين الشعوب والحكومات لصالحهم، فيرسّخون هذه الخلافات عن طريق عملائهم الذين لا يعرفون الله، وأكثر من ذلك كلما وضع أساس للوحدة بين المسلمين هبّ هؤلاء لمحاربته بكلّ ما أوتوا من قوة وعملوا على نشر بذور الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الاسلامية...»**[٩].

ولعل أكثر هذه الخلافات أو الاثارات خبثاً ومكراً هو ما يثيره بعض وعاظ السلاطين حول بعض المسائل العبادية المذهبية، التي لا تخلّ بأصل العقيدة ولا تؤثر على جوهر الدين، وكيف أن بعض هؤلاء الوعاظ مثلاً ينشغلون في مواسم الحج في إثارة هذه النعرات الجانبية، فهذا يدعو الله باسم أوليائه وأنبيائه، وآخر لا يرضىٰ بذلك؛ لأنّ المدعو هو الله تعالى وحده، وآخر يطلب الشفاعة بالوسيلة كما وردت في القرآن الكريم وغريمه يؤاخذه على هذه الوسيلة ويعتبرها شركاً أو كفراً، وثالث يُقبّل قبر النبيّ مثلاً وصاحبه لا يرضىٰ منه ذلك وهو يقبل القرآن الكريم مثلاً، وما الى ذلك من قناعات روحية وعاطفية لا تقتل في الود قضية ولا تخلف ديناً جديداً أو عقيدة جديدة ما دام الربّ واحداً والنبيّ واحداً والقرآن واحداً والقبلة واحدة وكان الله يحب المحسنين.

ولم يكن الامام الخميني ﷺ ليقول هذه الكلمات أو يؤكد على الوحدة الاسلامية بعبارات مجردة ويترك الأمور العملية على عواهنها كما يفعل الكثيرون، ولكنه ـ رضوان الله عليه ـ اقترب خطوات عملية أذهلت الخصوم وجعلتهم في حيرة من أمرهم، فتراه مثلاً يُفتي بوجوب الصلاة خلف أئمة الجماعة في مكة

والمدينة، وعدم جواز الصلاة خلف غيرهم في الديار المقدسة رغم الخلافات الظاهرية المزعومة بين الطائفتين المسلمتين، ويُفتي كذلك بعدم الصلاة على التربة الحسينية التي يعتبرها المسلمون الايرانيون شعاراً عظيماً لاستحضار التواضع والسجود على التراب كما صلى النبيّ ﷺ في مسجد المدينة... لئلا يثير حفيظة إخوانهم المسلمين الآخرين الذين لم يألفوا هذا الطقس... محاولاً جهد إمكانه توصية المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة ضد أعداء الاسلام وخاصة المستكبرين الذين لا يريدون للاسلام عزّاً ولا لأهله وحدةً أو مجداً أو كرامة...

## إثارة الخلافات في الحج جريمة

ويروح الامام يندّد بأولئك الجناة الذين يحاولون شق الصف الاسلامي وتمزيق كلمة المسلمين الواحدة بقوله:

**«إنّ إثارة الخلافات بين المذاهب الاسلامية تعتبر من الخطط الإجرامية، التي تدبّرها القوى المستفيدة من الخلافات بين المسلمين، بالتعاون مع عملائها المنحرفين بمن فيهم وعاظ السلاطين الذين اسودت وجوههم أكثر من سلاطين الجور أنفسهم..»**[١٠].

ولعلّ أكثر ما كان يجرح قلب الامام ﷺ هو تلك المعزوفة أو كلمة الحقّ التي أريد بها الباطل، والترويج لها في موسم الحج من قبل بعض وعاظ السلاطين، وكيف كانوا يوظفون ظاهرها أو معناها الظاهري لإيقاع القطيعة بين المسلمين ومنعهم من الحوار وتجاذب الحديث وتدارس الهموم والمشاكل...

فكانوا يرفعون الآية القرآنية الكريمة ﴿**فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾ شعاراً لمنع أي حديث سياسي أو اجتماعي يمرّ خلاله المسلمون على آلامهم وأمالهم وتطلعاتهم، ويروحون يؤكدون فقط وفقط على الجوانب العبادية التي تنأىٰ بالمسلمين بعيداً عن أي حديث له علاقة بالأرض والواقع، وتُحرّضهم على

التحليق والتحليق فقط في ملكوت الله تعالى في تلك الأجواء الروحانية العظيمة... وفي محاولات مقصودة لإبعادهم عن كلّ ما يثير اهتماماتهم بشعوبهم وأرضهم وأوطانهم وحكامهم وثرواتهم ووحدتهم وعزتهم...

هذا الشعار الذي أريد له أن يكون معولاً لتهديم كلّ حلقة حوار بنّاء بين المسلمين، ووصفه بأنه جدل وفسوق مقروناً بالرفث... جاء الامام ليحوّله الى جدل بالتي هي أحسن والى موعظة ودعوة كريمة لتلاقي المسلمين وحلّ مشاكلهم وحتىٰ خلافاتهم بالكلمة الطيبة، وبعيداً عن السجال الفارغ والجدل المتهافت الذي لا يحل المشاكل فعلاً وإنّما يعقّدها ويُذكي نيرانها...

بل يمكن أن تكون خطورة هذا الشعار أكثر من ذلك الذي حجز القرآن في المقابر، أو ذلك الذي راح يفسره ويوظف نصوصه لما يخدم أغراضه ومعالمه...

يقول الامام:

**«إنّ هناك قضايا مؤسفة توجب البكاء عليها دماً... إنّ فقهاء البلاط الذين هم أسوأ من الطغاة اتخذوا من القرآن الكريم وسيلة للظلم وترويج الفساد وتسويغ أعمال الظلمة والمعاندين لإرادة الحق تعالى... فوا أسفاه، إنّ القرآن الكريم كتاب الهداية الرباني هذا، لم يُعد له من دور سوىٰ في المقابر والمآتم بسبب الأعداء المتآمرين...» وأكثر من ذلك ـ والقول للامام طبعاً ـ «وبسبب الأصدقاء الجهلة أيضاً، وبدل أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين في العالم ودستوراً لهم، أصبح هذا القرآن وسيلة للتفرقة وإثارة الفتن والخلافات...»**[١١].

### رسالة الحج امتداد لرسالة القرآن:

وفي سياق هذا الفهم الواعي لرسالة الحج يأتي الامام ليؤكد أنّ الدور المعوّل على هذا المؤتمر الالهي العالمي، لا يقلّ عن دور القرآن الكريم في إحياء الأمة

المسلمة واستنهاض مسؤوليتها في الحركة والتغيير، اعتقاداً منه ﷺ أن القرآن كما هو كتاب هداية وحياة وليس كتاب موتىٰ وقبور وفواتح فقط، فإنّ الحج هو الآخر كان وسيبقىٰ مؤتمراً إسلامياً عالمياً لبناء الوحدة الاسلامية وتأكيد عزة المسلمين واستخلافهم أو ميراثهم لخلافة الأرض.

يقول الامام في هذا السياق:

**«الحج هو النداء السماوي لإيجاد وبناء المجتمع الجديد البعيد عن الرذائل المادية والمعنوية. إنّ الحج ومناسكه هو التجلّي الأعظم لحياة كريمة ومجتمع متكامل في هذه الحياة الدنيا...»** ويضيف:

**«ومن ذلك المكان ومن ذلك الموقع الذي يتواصل فيه مجتمع المسلمين من أي قوميةٍ كانوا ويصبحون يداً واحدة، ينطلق أداء هذه الفريضة المباركة التي يجب أن يكون أداؤها وجوهرها توحيدياً إبراهيمياً محمدياً. إنّ الحج هو ساحة عرض ومرآة صادقة للاستعدادات والقابليات المادية والمعنوية للمسلمين. الحج كالقرآن يستفيد منه المجتمع، فالمفكرون والعارفون بآلام الأمة الاسلامية إذا ما فتحوا قلوبهم، ولم يهابوا الغوص عن قرب في أحكامه وسياساته الاجتماعية سيصطادون الكثير من صدف هذا البحر، جواهر الهداية والرشد والحكمة والحرية، وسيرثون الى الأبد من زلال حكمته ومعارفه، ولكن ماذا نفعل؟».**

وهنا يتأوه الإمام ويزفر زفرة مُرّة تعبّر عن لوعةٍ وحزن وألم، لما يراه من واقع المسلمين وابتعادهم عن جوهر الهداية هذا، فيقول:

**«وأقولها بألم وحزن، إنّ الحج أصبح مهجوراً كالقرآن وبنفس النسبة التي اختفىٰ فيها هذا الكتاب ـ كتاب الحياة والكمال والجمال ـ بسبب حجب النفس التي صنعناها بأيدينا ودفنّا هذا الكنز. كنز أسرار الخلقة، فكذلك الحج أصبح أسير هذا القدر، قدر أنّ الملايين من المسلمين يجتمعون كلّ سنة ويضعون**

**أقدامهم محل قدم محمد وإبراهيم وإسماعيل وهاجر ولا يوجد أحد يسأل: ماذا فعل إبراهيم ومحمد؟ وما هو هدفهما؟ ماذا طلبا منا؟ ماذا أرادا؟ وهذا مالا نفكر به مع الأسف الشديد».**

بهذا التشخيص الدقيق للدور، وبهذه الرؤية الفاحصة لرسالة الحج يروح الامام الخميني منظّراً ومفكراً حين يرىٰ أن لابد من التنظير، والتنظير على الأقل، لإنقاذ المسلمين من هذا الواقع المؤلم.

## الحج دون وعي ليس حجاً

يواصل الامام حديثه قائلاً:

**«من المسلّم أن حجاً دون معرفة ووعي ودون روح ودون حركة ونهوض، وحجّاً دون براءة، وحجاً دون وحدة، وحجاً لا ينتج هدماً للكفر والشرك ليس حجاً. وخلاصة الأمر أنه يجب على جميع المسلمين السعي لأجل تجديد حياة الحج والقرآن وإعادتهما ثانية الى ساحة حياتهم، وعلى المحققين المؤمنين بالاسلام أن يبيّنوا التفاسير الصحيحة والواقعية لفلسفة الحج، ويرموا في البحر كلّ نسيج الخرافات وادعاءات علماء البلاط».**

ولم يكتف الامام بعرض هذا البُعد العملي لفلسفة الحج ودوره في البناء الرسالي للشخصية الرسالية، بل راح الامام وفي مواطن كثيرة من بياناته وتوجيهاته يؤكد على البعد الآخر، وهو البعد الروحي والمعنوي، وهو ليس أقل من البعد الأول في دوره وهدفيته في بناء الشخصية الرسالية المتوازنة... إذ يقول ﷺ:

**«إنني أوصي جميع العلماء المحترمين والكتاب والمتحدثين الملتزمين أن يوضحوا لجميع المسلمين وخاصة الحجاج منهم أهداف هذه الفريضة المقدسة. كما إني أوصيهم بتعليم الحجاج مناسك الحج وكيفية أدائها بشكلها**

**الصحيح حتىٰ يكون عملهم خالياً من الأخطاء، وعدم الاكتفاء بأننا أدينا الفريضة وأنجزنا الواجب كيفما كان، فإنّ الأخطاء في هذه الفريضة تترك آثاراً وإشكالات على صحتها قد تكلفهم وقتاً وجهداً مضاعفاً لتصحيحها...».**

## الحج عبادة ورسالة

ومن قراءة متأنية لبعض كلمات وخطابات الامام العميقة حول الحج كفريضة عبادية ذات بُعد اجتماعي وسياسي يكتشف المحلل أن الامام لم يفصل بين السماء والأرض، ولم تتضخّم لديه حالة على أخرىٰ، فكما تراه هائماً عرفانياً في ملكوت السماء عاشقاً لقدرة الله غارقاً في محبته تراه في الجانب الآخر غارقاً في حب الناس مستشعراً همومهم متحسساً لآلامهم وأوجاعهم يحثّ السير لتحقيق العدل والحرية لبني الانسان مستلّاً عمقاً اجتماعياً من هذه العبادة، ووعياً سياسياً تغييراً من تلك...

لنستمع الى الامام وهو يقول:

**«عندما تلفظون لبيك اللهم لبيك، قولوا: لا، لجميع الأصنام، واصرخوا: لا، لكل الطواغيت الكبار والصغار...».**

وهو بهذا يجسد الوحدانية الكبرىٰ لله تعالى والألوهية المطلقة له سبحانه...

فالتلبية لله وحده هي رفض لكلّ الآلهة المزيفة الأخرىٰ، والتوحيد المطلق لقدرته جلّ وعلا، هي الرفض المطلق لكلّ الأصنام البشرية،... وعبارة (الله أكبر) هي الأخرىٰ تعني أنّ الله سبحانه وتعالى أكبر من كلّ كبير... وأن تكبيره سبحانه هو تصغير لكلّ الطواغيت الصغار والكبار وخاصة الكبار...

وهو بهذا المعنىٰ يريد أن يؤكد أن هؤلاء الطواغيت والحكام الظلمة إنما هم أصنام وأوثان يجب سحقهم، وأنّ على المسلمين أن يعتمدوا على القدرة المطلقة للباري تعالى وأن يتمردوا على الحكومات الظالمة ويحققوا عزتهم وكرامتهم من

خلال الانتماء لقدرة الله وإرادته وجبروته...

وهو في مكان آخر، وحين يؤكد على مسيرة البراءة من المشركين والظالمين إنما يريد أن يعلن موقفه الواضح والصريح من أصنام الشرق والغرب وأذنابهم وأذيالهم، فنراه يقول:

**«وأثناء الطواف في حرم الله حيث يتجلّى العشق الالهي، أخلوا قلوبكم من الآخرين، وطهّروا أرواحكم من أي خوف لغير الله، وفي موازاة العشق الالهي، تبرأوا من الأصنام الكبيرة والصغيرة، وكذلك من الطواغيت وعملائهم وأزلامهم، حيث إنّ الله تعالى ومحبيه تبرأوا منهم، وإنّ جميع أحرار العالم بريئون منهم...**

وكلما اقترب الامام من تفاصيل الممارسة العبادية للحج، يضع لكلّ ممارسة هدفاً اجتماعياً يَشدّ المتعبد خلالها بما وراءها من أجل العمل في سبيل عيال الله وعدم الاكتفاء بالارتواء الروحي الذي هو بحد ذاته حالة نفسية عظيمة تشدّ العبد الى خالقه والتأمل بما وراء هذا الخلق والهدف منه ونهايته ومآله... يقول الامام:

**«وحين تلمسون الحجر الأسود اعقدوا البيعة مع الله أن تكونوا أعداءً لأعداء الله ورسوله والصالحين والأحرار، ومطيعين وعبيداً له، أينما كنتم، لا تحنوا رؤوسكم واطردوا الخوف من قلوبكم، واعلموا أنّ أعداء الله وعلى رأسهم الشيطان الأكبر جبناء وإنْ كانوا متفوقين في قتل البشر وجرائمهم وجناياتهم».**

وفي توجيهه أو تفسيره للسعي بين الصفا والمروة، يشير الامام الى هدف اجتماعي آخر أقل ما فيه هو الوصول الى المعشوق والسعي للالتحام به، وتجاوز كلّ المعشوقات الطينية الدنيوية التي تشدّ الانسان إلى الأرض وتُخذله وتُمسك به، وتُثقله بهموم تافهة وطموحات صغيرة...

يقول الامام في هذا الصدد:

**«أثناء سعيكم بين الصفا والمروة اسعوا سعي من يريد الوصول الى المحبوب،**

حتىٰ إذا ما وجدتموه هانت كلّ الأمور الدنيوية، وانتهت كلّ الشكوك والترددات... وحينها تزول كلّ المخاوف والحبائل الشيطانية والارتباطات القلبية المادية، فتزهر الحرية، وتنكسر القيود الشيطانية والطاغوتية التي أسرت عباد الله...».

وهكذا في كلّ موقف ومشهد من مواقف ومشا[illegible] مسيرة الحج الكبرىٰ، فترى للامام رؤية في المشعر الحر[illegible] عرفات ورؤية [illegible] منىٰ وعند الرجم ورؤية عند الطواف وعند الذبح [illegible]ها تـ[illegible] رة استشعار الانسان لدوره على هذه الأرض وأنه [illegible] و[illegible]له وحمل الأمانة باخلاص وصدق... يقول الامام:

«سيروا الى المشعر الحرام وعرفات وأنتم في حالة [illegible] و[illegible] كونوا [illegible] كلّ موقف مطمئني القلب لوعد الله الحق بإقامة حكم المست[illegible]كون وهدوء فكّروا بآيات الله الحق، وفكّروا بتخليص المحرومين والمستضعفين من براثن الاستكبار العالمي، واطلبوا من الحق تعالى في تلك المواقف الكريمة تحقيق سبل النجاة. بعد ذلك عندما تذهبون الى منىٰ اطلبوا هناك أن تتحقق الآمال الحقّة حيث التضحية هناك بأثمن وأحب شيء في طريق المحبوب المطلق، واعلموا أنه ما لم تتجاوزوا هذه الرغبات، التي أعلاها حبّ النفس وحبّ الدنيا التابع لها، فسوف لن تصلوا الى المحبوب المطلق. وفي هذا الحال ارجموا الشيطان، واطردوا الشيطان من أنفسكم، وكرّروا رجم الشيطان في مواقع مختلفة بناءً على الأوامر الالهية، لدفع شرّ الشياطين وأبنائهم عنكم...».

لاحظ استخدام الامام لكلمة (الشياطين) و(أبنائهم) ولاحظ التوجيه المتعمّد للتأمل في شياطين الأرض الذين هم أسوأ من شياطين السماء...، ولاحظ أيضاً كم استغرق (المستضعفون والمحرومون) من فكر الامام وهمّه، والذين هم ضحية الطواغيت وأبناء الشياطين.. هؤلاء الفقراء والحفاة ـ كما يسميهم الإمام ـ الذين

يصنعون الحياة وهي محرّمة عليهم...

ولم يكتفِ الامام بأن يقف مع مناسك الحج وقفة عبادية بحتة لا علاقة لها مع دنيا الناس، ولكنه حاول إشعار ضيوف الرحمن بأن يتأدبوا بآداب الله ويتخلقوا بأخلاق رسول الله وأن يكونوا رحمانيين في تعاملهم مع عباد الله، وأن يحفظوا كرامة الاسلام بمحاربة أعداء الدين وتبنّي هموم المسلمين...

يقول الامام قدس سره:

**إن هذا السفر الالهي الذي تذهبون إليه، وترجمون فيه الشيطان، وإذا ما كنتم ـ لا سمح الله ـ من جنود الشيطان سترجمون أنفسكم أيضاً، يجب أن تكونوا في هذا السفر رحمانيين، وأن تصبحوا رحمانيين، حتىٰ يكون رجمكم رجم أتباع الرحمن وجنوده للشيطان، وأنتم تقفون في تلك المواقف والمواضع الكريمة. معاذ الله أن يتلوث وقوفكم بشيء خلاف الشرع، أو يتلوث بالمعصية، ففضلاً عن إراقة ماء الوجه أمام الله تسقط كرامة الاسلام في الدنيا. إنّ كرامة الاسلام اليوم متقومة بوجودكم، أنتم الذين تذهبون جماعات جماعات الى تلك المواقف الكريمة ويشاهدكم سائر المسلمين في شتىٰ بقاع العالم...».**

## الحج هدف ووسيلة

وكما هي بقية العبادات في نظر الامام، فإنّ الحج ليس هدفاً بحد ذاته وإلا «**فما أكثر الضجيج وأقل الحجيج**» كما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام والحج ليس تزكية للنفس فقط من براثن الآثام وشرورها فقط، فقد يكون المرء أحياناً وليّاً من أولياء الله في طهره ونظافته ونزاهته، ولكنه ليس ولياً لعباد الله... أي أنه عمل لتزكية نفسه وتطهيرها ولم يعمل لتطهير الآخرين وتزكيتهم وتغيير نفوسهم، وربما يكون المرء نقياً طاهراً في ذاته ولكنه لا علاقة له بالناس ولا شأن له بهم... يدور حول نفسه وذاته صائناً نفسه مهذباً لها، ولكن ليس له همٌّ غير همّ نفسه ولا يهمه غير تهذيب عائلته وبيته ولو تلوّث جو الأرض ومن عليها.

هذه الإثارة الحساسة، حاول الامام الخميني التحرش بها ودعوة الناس والعلماء خاصة للتأمل في آثارها الاجتماعية، ويتساءل **كيف ولماذا بعث الله تعالى الأنبياء مبشرين ومنذرين؟ وكيف دعا سبحانه في العديد من آياته البينات حتى الى القتال في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟**

قال تعالىٰ:

**﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾**(١٢).

وهذا يعني أنّ العبادات والأحكام والأنبياء والرسل والكتب السماوية كلّها جاءت من أجل الناس والمستضعفين منهم خاصة الذين لا حول لهم ولا قوة، والذين يسحقهم طغيان الجبابرة وفرعونيتهم وغلظتهم...

فالمستضعفون في نظر الامام هم صناع التاريخ ووقود الثورات، وهم «**أراذلنا**» في مصطلح القرآن الكريم، الذين اتبعوا الأنبياء وانتصروا لهم، وكانوا ندّاً للطغاة والمستكبرين على امتداد التاريخ... هم الحفاة الجياع القادرون على المواجهة ونزف الدم، فهم لا يساومون ولا يجاملون ولا يداهنون... فهم الذين أوصى القرآن الكريم بإطعامهم وتقديم الأضحية لهم في موسم الحج **﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾**(١٣).

ولم يرفع الامام الخميني شعار المحرومين والمستضعفين للتجارة والاستهلاك كما يفعل السياسيون عادة لتوظيف الشارع وتعبئته وتحشيده باتجاه هدف خاص، وإنما كان ذلك من مقدمات وبواكير أفكاره... فهو القائل في بدايات محاضراته حول الحكومة الاسلامية قبل سنين من انتصار ثورته:

**«وقد استعان المستعمرون بعملاء لهم في بلادنا من أجل تنفيذ مآربهم الاقتصادية الجائرة، فنتج عن ذلك أن يوجد مئات الملايين من الناس الجياع**

**يفتقدون أبسط الوسائل الصحية والتعليمية، وفي مقابلهم أفراد ذو ثراء فاحش وفساد عريض... وهؤلاء الجياع هم دائماً في كفاح مستمر ضد الحكام الجائرين، أما نحن فمكلّفون بانقاذ المحرومين والمظلومين، وإننا مأمورون بإعانتهم لمناوأة الظالمين وفقاً لما جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام «كونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»**[١٤].

واستمر الامام على هذا النهج طيلة أيام حكمه حتىٰ قيل فيه: إنه لم يوجد عالم أو مرجع مبسوط اليد على امتداد عصر الغيبة، يحب شعبه ويناصر المحرومين، ويعيش همومهم وآلامهم مثل هذا الرجل. أما أقواله الشهيرة «**أنا خادم وليس قائداً**» و«**أنا أقبّل أيادي شباب التعبئة**» و«**إنّ شعرة واحدة من جلد فقير تساوي كل أصحاب القصور**» معروفة للقاصي والداني، وأنه مثّل تلك المفاهيم مصاديق واضحة في شخصيته وزهده وتواضعه... فكان الوريث الطبيعي والامتداد الحق لذلك الوصي الزاهد العظيم، الذي عاش ورحل مثالاً رائعاً لقولته الخالدة: «**ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز**» أي أنه لم يكن يطلق هذه العبارات كشعارات ولافتات للاستهلاك والارتشاء السياسي، ولكنه كان مصداقاً رائعاً لما قاله وأطلقه وتحدّث به قبل ثورته وبعدها، فهو القائل لنجله (أحمد): «**لا تكتب لي بعد الآن (اسحب خط هاتف وأنا أدفع) فأنت أيضاً لا تملك شيئاً سوى أموال الفقراء. احترز من الصرف الزائد**»[١٥].

وهذا حينما كان الامام في النجف الأشرف، ونجله في ايران، وكذلك ما تذكره سيرته العطرة عن عدم وجود هاتف في بيته في النجف، وكانت زوجته كلما أرادت الاتصال بأولادها في ايران كان عليها أن تخرج الى دائرة البريد في حر الصيف أو تذهب بخجل الى بيت الشيخ نصر الله الخلخالي لتستأذنه في الاتصال بايران، وكان الرجل يرحّب بها ويستقبلها بتكريم...

أما بعد انتصار الثورة وأثناءها فمعروفة مواقفه ومصاديق زهده بشكل

مذهل، فهو الذي رفض أن يسكن بيتاً فخماً في قم أو طهران، ورفض أن تخصص له سيارة خاصة فارهة، واعترض يوماً حين جيء له بسيارة أخرىٰ غير السيارة الشعبية المصنوعة في ايران، كما اعترض بشدّة يوماً حين اكتشف أنه قد تمّ إعداد ملجإ له خاص يحميه من القصف الجوي أثناء الحرب وأمر بتهديم الملجإ[١٦].

أما ما كتبه حول مسألة تَركته فتتوقف عنده العقول والقلوب معاً، ولا يعبّر فقط عن موقف استنهاضيّ أو تعبوي، وإنما عن موقف رسالي ومبدَئي مسؤول لا يقوله ولا يفعله إلّا الأولياء والأوصياء.

هاك ما كتبه في هذا الصدد وأكّده على كلّ مسؤولي الدولة الاسلامية:

**«... وإني أعلم بوضوح كامل، أنه ليس لابني أحمد في أي بنك داخلي أو خارجي، أو أية مؤسسة أي سهم أو مبلغ، وأنه لا يملك في أي مكان لا في الداخل ولا في الخارج أية أرضٍ، زراعية أو غير زراعية، ولا يملك أي مبنىً أو عقار أو ما شابه ذلك...».**

ويضيف:

**«وإذا ما تبيّن من بعدي أنه يملك أياً من ذلك في الداخل أو الخارج فإنّ على الحكومة أن تصادرها منه بإجازة فقيه ذلك الزمان، أو تحاكمه (لاحظ)... والمؤمل أن يراعي مسؤولو الجمهورية الاسلامية دوماً الضوابط وأن يحترزوا من الروابط...»[١٧].**

وعلى نفس النهج وفي نفس الاتجاه جاءت كلماتٌ معبّرة في وصيته لنجله المذكور (رحمة الله عليه) ووصيته له بالمستضعفين والمحرومين، حين كتب له يوماً يقول:

**«... آمل أن يرضى الله تعالى عنه (عن أحمد) كما رضي عنه أبوه، وأن يوفّق ما وسعه ذلك في خدمة المحرومين والمستضعفين، الشريحة الأكثر استحقاقاً لتقديم الخدمة من بين جماهير الشعب التي أوصىٰ بها الاسلام...»[١٨].**

وفي وصية أخرىٰ له لنجله أيضاً جاء فيها:

**«... وكذلك من الأمور المهمة التي ينبغي أن أوصي بها: هي الحرص على إعانة عباد الله خصوصاً المحرومين والمستضعفين المظلومين الذين لا ملاذ لهم إلّا الله تعالى، فابذل ما وسعك في خدمتهم، فذلك خير زاد وهو من أفضل الأعمال عند الله، ومن أفضل الخدمات التي تقدّم للاسلام العظيم...»**

وأضاف:

**«اسعَ في خدمة المظلومين وفي حمايتهم مقابل المستكبرين الظلمة»**(١٩)

وكأنه بذلك تجسيد جديد بل إحياء عظيم لذلك الصوت السماوي (صوت العدالة الانسانية) الخالد، صوت أمير المؤمنين عليه السلام حين كتب لواليه على البصرة يقول:

**«... أأقنع من نفسي بأن يقال عني أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش...».**

وهكذا، ولئن افتتح الامام الخميني مقدمات ثورته بهذا الحب للمستضعفين ومواساته لهم، فإنه عاش لهم نفس الحب ونفس المواساة في ثورته وأيام حكمه، ولم ينس ذلك في معظم بياناته حتى لحجاج بيت الله الحرام وهم يؤدون مناسك حجهم الأعظم، ولم ينس أن يترك رؤيته الصريحة في هؤلاء المحرومين حتىٰ في وصيته الخالدة، حيث كتب يقول:

**«... إنّ كلّ ما فعلته الحكومات المتسلطة كان من أجل مصالحها الشخصية أو الفئوية، أو من أجل رفاهية فئة المترفين والأعيان، فيما كانت الفئة المظلومة وسكنة الأكواخ محرومين من كلّ مواهب الحياة، حتى الماء والخبز وما يُقام به الأوَد، وهؤلاء المساكين مسخّرون لخدمة تلك الفئة المترفة المنغمسة في الملذّات...»**

وأضاف مستصرخاً هؤلاء المحرومين أنفسهم:

**«وليحرص أبناء الشعب النبيل أن يكون رئيس الجمهورية والنوّاب من الذين تحسّسوا حرمان المستضعفين والمحرومين وظلامتهم، وممن يسعون الى رفاهيتهم، وليسوا من الرأسماليين والإقطاع والأعيان المترفين الغارقين في الملذات والشهوات، الذين لا يستطيعون إدراك معنى الحرمان وآلام الجياع والحفاة...»**[٢٠].

اذن، ومن خلاصة ما أراد الامام تركيزه في صناعة هدفية العبادة والحكم، والبحث عن مقاصد الشريعة كما يقولون، في الحج وغير الحج، هو تأكيده على هؤلاء المستضعفين، وأنهم الأبناء البررة للثورة الذين يعطون عادةً ولا يأخذون، أو أنهم يعطون أضعاف ما يأخذون، أي عكس غيرهم الذين يأخذون ولا يعطون، وإذا أعطوا فإنهم يأخذون أضعاف ما يعطون... وهذا هو الفرق بين من يدرك أنّ السلطة عطاء وتضحية ونزف، وغيره الذي يفهم أنها سلطة وفرصة وحصة وسهم...

من هذه المنطلقات ووفق هذه الأسس والمقاييس كان الامام الخميني يحاول خلق ثقافة جماهيرية ورأي عام إسلامي يُشعر الأمة الاسلامية أولاً بمسؤوليتها ويستنهضها على الارتفاع لتلك المسؤولية والنهوض بها... فلم يجد ملتقى أفضل من ملتقى الحج الابراهيمي هذا الذي يقوم فيه مئات الألوف من المسلمين الآتين لبيت الله العتيق من كلّ فج عميق، وجميعهم يرددون: «**لبيك اللهم لبيك، لبّيك لا شريك لك لبيك... إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**»..

ومن هذه التلبية ومن هذا الجو الروحي المفعم بمعاني الطهر والصفاء وتزكية الروح... أراد الامام أن ينتقل بالفرد المسلم الى أبعد من هذه التزكية، وأن ينتقل بالعبادة من شأنها الفردي العظيم بحد ذاته الى شأنها الاجتماعي الفاعل ودورها في تغيير الأمم والشعوب...

فما دام المسلمون في هذا المؤتمر قلباً واحداً وروحاً واحدة، وتوجهاً واحداً

نحو أنبياء الله، تجمعهم كعبة واحدة وقرآن واحد ونبيّ واحد وقبل كلّ ذلك وبعده ربّ واحد، فلماذا لا تستثمر هذه المعاني العالية لخلق إرادة إسلامية واحدة ومنهج إسلامي واحد وعلى الأقل لمواجهة أعداء الاسلام أو ممن يريدون تمزيق المسلمين بإثارة الفتن والثغرات، والنأي بهم بعيداً عن همومهم وآلامهم وآمالهم وتطلعاتهم...

كان الامام بهذا الاتجاه، وكان في تعاطيه مع مسألة الحج بهذا المستوىٰ من الشعور بالمسؤولية... مسيرة من الفرد الى المطلق، وسفر من الخلق الى الحق، وعودة ناضجة وراشدة لتحقيق رسالية المرء المسلم في كونه خليفة الله في أرضه ومستخلفاً عاهد ربّه على حمل رسالته حين ناءت بحملها الأرض والسماء والجبال...

**﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان..﴾**[٢١].

**الهوامش:**

(١) يؤكد بعض علماء الاسلام على طاعة الحاكم المسلم الظالم ما دام يقيم الصلاة ولم يأمر بمعصية، ويؤكد آخرون أن ستين سنة من سلطان ظالم أفضل من سنة بلا سلطان.

(٢) من بيان الامام للعلماء المحرر في ١٥ رجب ١٤٠٩هـ.

(٣) الحكومة الاسلامية للامام الخميني: ١٣٨.

(٤) كان الامام دائماً يحذر من هذه النهاية، فقد قال يوماً: «... **بالأمس قال المزيفون المبرقعون بالقدسية ان الدين مفصول عن السياسة... وإنهم أهدروا بسكوتهم شرف الاسلام...**» الى أن يقول: «**لو استمرت هذه السياسة لأصبح وضع العلماء كوضع الكنائس في القرون الوسطىٰ...**» راجع بيان الامام في ١٥ رجب ١٤٠٩هـ.

(٥) من نداء الامام الراحل للأمة في ١٥ شعبان ١٤٠١.
(٦) من مقدمة الوصية التاريخية للامام الخميني.
(٧) مفهوم النصّ ـ د. نصر حامد أبو زيد ـ ط ١، ١٩٩٠: ٢٩٧.
(٨) من بيان الامام لحجاج بيت الله الحرام عام ١٤٠١هـ.
(٩) نفس البيان السابق.
(١٠) نفس البيان السابق.
(١١) من الوصية التاريخية للامام الخميني.
(١٢) النساء: ٧٥.
(١٣) الحج: ٣٦.
(١٤) الحكومة الاسلامية للامام الخميني: ٣٦.
(١٥) وردت هذه القصة مفصلة في كتاب (موعد اللقاء) وهو مجموعة رسائل كان الامام الخميني يبعثها الى نجله السيد أحمد ونشرتها مؤسسة نشر تراث الامام ط ١ سنة ١٩٩٦ الصفحة ١٦٠ تحت هذا العنوان.
(١٦) يمكن مراجعة تفاصيل هذه القضية في مجلة التوحيد العدد ٧١ الصادر في حزيران ١٩٩٤م.
(١٧) كتاب (موعد اللقاء) مصدر سابق: ١٠٢ والرسالة بتاريخ ١٩٨٣/١١/١٤ وجاءت بعدها، أشيع عن تـغليب بعض المسؤولين لمسألة (الروابط على الضوابط).
(١٨) نفس المصدر السابق: ٧٤ والرسالة بتاريخ ١٩٨٣/٢/٢٧م.
(١٩) نفس المصدر السابق ص ٢٦ والرسالة بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢٨.
(٢٠) من الوصية التاريخية للامام الخميني.
(٢١) سورة الأحزاب: ٧٢.